النمو النفسى وتشكيل نمط الشخصية

تعتبر مراحل النمو النفسى للإنسان من أهم مراحل نموه لأن أى إعاقة أو اضطراب لهذا النمو يؤثر بالسلب على بقية جوانب النمو الأخرى وتصبح الشخصية الإنسانية غير سوية، مرضية كما أنه هو الذى يعطى بقية جوانب النمو الأخرى الطاقة النفسية اللازمة لنموها لهذا تحدثت عنه الحضارات القديمة والفلسفات القديمة فنجد الإنسان البدائى اقتصرت معرفته على حركة الأجنة فى بطون أمهاتها حتى أنه رسم لآلهته التى كان يعبدها فظن أن هذه الآلهة كانت أجنة قبل أن تصبح ناضجة راشدة.

بقلم :

د. إبراهيم محمد المغازى
قسم علم النفس
جامعة قناة السويس

أما اخناتون فقد حاول أن يصور حياة الجنين فى تطورها الذى يسبق ميلاده فقال فى أحد مزاميره مخاطبا إله الشمس يا خالق الجرثومة فى المرأة ياخالق البذرة فى الرجل يا واهب الحياة للجنين فى بطن أمه منحته الطمأنينة حتى يظل حيا حين يولد هكذا وصل اخناتون بتفكيره إلى أهمية البويضة الأنثوية والحيوان المنوى فى تكوين البويضة الملقحة الزيجوت التى تبدأ منها حياة الجنين.

أما الفلاسفة القدامى فكانوا يعتقدون أن حياة الجنين تنشأ من مادة ذات شكل خاص ثم تتطور هذه المادة حتى تصبح جنينا «نظرية التكوين الحادث» أما نظرية التكوين الأزلى فكانت تقرر أن تكوين الحيوان المنوى الذكرى لا يفترق فى جوهرة عن تكوين الإنسان ووظيفة المرأة هى أن تحمل الجنين فى بطنها حتى يكبر ثم تلده طفلا مثلها فى ذلك مثل الأرض التى تنبت فيها البذور.

وذهب «أرسطو» إلى أن الحياة صفة للموجود بها يتغذى وينمو وأن الصفة الأساسية للحياة هى التحول أى التغير من حالة إلى أخرى وأن التغذى لدى الطفل يرجع إلى قوة دافعة هى «النفس» كما أن لكل مظهر نمائى من مظاهر النمو سرعته الخاصة والتى يختلف فيها معدل النمو من مظهر لآخر حيث أن أجزاء الجسم لا تنمو بمعدل واحد فالنمو العقلى لا ينمو بدرجة متساوية وأن لكل مرحلة نمو حاجات ضرورية بيولوجية ونفسية يجب إشباعها فعدم إشباعها يضر بالنمو النفسى للإنسان خلال مراحل عدة أى تغيير فى نمط الجسم النسبى لأعضاء الجسم من وقت لآخر فالجمجمة تنمو بسرعة كبيرة فى مرحلة ما قبل الميلاد ثم تهدأ سرعة نموها بعد الميلاد، والمخ يصل إلى الحجم النهائى الناضج بين سن السادسة أو الثامنة بينما تظل أعضاء الجهاز التناسلى تنمو ببطء خلال مرحلة الطفولة ثم تسرع فتصل إلى الحجم النهائى الناضج فى مرحلة المراهقة.

كما أن هناك سمات وخصائص معينة لكل مرحلة من مراحل النمو الإنسانى ولها مطالب نمو فإذا حققنا هذه المطالب بنجاح يشعر الإنسان بالسعادة وتقوى الدافعية لانجاز المطالب اللاحقة لمرحلة النمو اللاحقة حيث توضح مطالب النمو مدى تحقيق الفرد لحاجاته وإشباعه لرغباته وفقا لمستويات نضجه وتطور خبراته التى تتناسب مع مرحلة نموه وتنتج مطالب النمو الخاصة بكل مرحلة نمو من تفاعل مظاهر النمو العضوى «كما فى تعلم المشى» وآثار الثقافة القائمة «كما فى تعلم القراءة» ومستوى طموح الفرد «كما فى اختيار المهنة أو الوظيفة المستقبلية للإنسان». كما أن هذه المطالب تفيد فى توجيه العملية التربوية والتعليمية فالطفل فى نموه النفسى يمر بالمرحلة الفمية ويكون مصدر اللذة لديه يعتمد على الفم «الشفتين» فعن طريق الفم يشبع الطفل حاجاته ولذته فهو الوسيلة الوحيدة لاتصال الطفل ببيئته ثم تأتى المرحلة الشرجية والتدريب على النظافة فأى خطأ فى أساليب التربية والتنشئة الاجتماعية وتعرض الطفل لأى قسوه أو نبذ أو رفض أو أى حرمان تكون النتيجة طفلا غير سوى مريضا نفسيا فى مرحلة المراهقة أو مراحل النمو التالية لها كذلك مرحلة التوحد والكمون والتى يتوحد فيها الطفل مع شخصية الأم والغيرة الشديدة من الأب «عقدة أوديب» والعكس توحد الطفلة مع الأب وغيرتها الشديدة للأم عقدة «الكترا» هاتان العقدتان إذا لم تحلا بالطريقة النفسية السليمة تكون النتيجة أيضا طفل أو إنسان غير سوى فى الكبر وما نراه الآن من عقوق الأبناء والأمهات ومن مظاهر غير سوية فى المجتمع هو نتيجة عدم النمو النفسى السليم فى مرحلة الطفولة فهل حان الوقت الآن لتدارك هذا الخطأ فى عملية التربية والتنشئة الاجتماعية.

وصدق الله العظيم إذ يقول

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ...•

وللمقال بقية